سلسلة رسائل البشير (٧)

آثار المعاصي والذنوب

الشيخ / السيد عسكر

• بسم الله الرحمن الرحيم •

1417 هـ ـ 1997 م

* الكتـــــاب : آثار المعاصى والذنوب .

* الـكـــاتـــب : الشيخ سيد عسكر .

* الـطبــــعـــة :الثانية 1997 م .

* الـنـاشـــــــر : دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .

* التــــــوزيـع : دار البشير ـ طنطا أمام كلية التربية النوعية

☎ 322404 ، 356663 فاكس : 331800 - 228277

* التـجـهـيـز الفنى : شركة الندى للتجهيزات الفنية المحلة الكبرى . ص . ب265

* الإيداع القانونى : 11692 / 96

* الترقـيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 278 - 024 - 0

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

قليلون الذين يكتبـون عن الشـر وعن المعاصى والذنوب فى حين أن خطرها عظيم ، ويحتاج الإنسان إلى تبصيره وإرشاده فى كيفيـة الوقاية والبـعد عن الانزلاق فى طريق المعاصى ، خاصة وأن الشيطان اللعين يستدرج الإنسان إليها شيئاً فشيئاً حتى يألفها ويتمادى فيها دون مبالاة والشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم والمعركة معه لا تهدأ إلا بعد الموت ، وإذا بالشيطان يخطب فى وسط جهنم فيمن أغواهم ويعود باللائمـة عليهم ويقول ﴿ إن الله وعـدكم وعـد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ .

ولقد اختار الأخ الكريم فضيلة الشيخ السيد عسكر موضوع المعاصى والذنوب وأثرها وهذا جانب يجب على كل مسلم أن ينتبه إليه ويستفيد مما كتبه فى هذا المجال خاصة وقد كثرت الفتن وأساليب الغواية .

ولقد أوضح المؤلف الفاضل أثر الطاعة فى إنارة القلوب وأثر المعاصى فى إظلام بصيرتها ، والقلب هو المضغة الهامة فى الجسد التى إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله .

وقد وفق المؤلف فى تصنيف الذنوب والمعاصى وذكر أن أعظم الذنوب هو الإشراك بالله كما ذكر ما غلب على الشعوب والأمم السابقة من المعاصى والذنوب وكيف أن الله أرسل لهم الرسل تنبههم إلى الابتعاد عنها وكيف أن الله أهلكهم بسبب إصرارهم عليها .

كما ذكر تفصيلا عن كل جريمة أو معصية كالقتل والزنا واللواط والسرقة والربا والخمر والاخطار

المترتبة على المجتمعات من كل جريمة منها وكيف أن الشرع الحكيم وضع من العقوبات الزاجرة التى تحد من انتشارها .

واسأل الله أن ينفع القارىء بما فى هذا الكتاب من دروس وعبر وأن يجازى فضيلة الشيخ السيد عسكر خيراً عن هذا المجهود الطيب فى هذا الموضوع الهام

مصطفى مشهور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد هادى الأمة وكاشف الغمة ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وأرشدنا إلى ما ينفعنا وحذرنا مما يضرنا وأخرجنا من الظلمات إلى النور وهدانا إلى صراط مستقيم .

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا

أما بعـــــد ..

فإن بعض الناس يظنون أن ثواب الطاعات يعود على أصحابها فى الآخرة فقط ، كما يعتقدون

أن جزاء السيئات كذلك لا يكون إلا فى الآخرة ولهذا فإن طائفة من الناس قد شغلهم أمر الدنيا وانصرفوا إليها وأعرضوا عن أمر الآخرة فأهملوا الطاعات ورتعوا فى المعاصى رغبة فى الحصول على المتاع الفانى ومؤثرين له على المتاع الباقى فضيعوا بذلك دنياهم وآخرتهم . ولم يدركوا أن الطاعات تجلب لصاحبها سعادة الدنيا والآخرة كما أن المعاصى تجلب على صاحبها شقاوة الدنيا والآخرة . لما كان هذا حال كثير من الناس فقد رغب إلىّ بعض الأحباب أن أكتب رسالة موجزة تكشف للناس عن ما يعود عليهم من الخير بسبب الطاعة والبعد عن المعصية ، وما يصيبهم من ضرر بسبب الوقوع فى المعصية وإهمال الطاعة مع الأخذ فى الاعتبار أن الجزاء ، منه ما هو معجل

فى الدنيا ومنه ما هو مؤجل فى الآخرة ، والآخرة خير وأبقى .

ولو تأملنا آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم لوجدناها تنطق صراحة بأن هدى الله الذى جاءنا به رسوله ليس قاصراً نفعه على نعيم الآخرة فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وإنما يضمن لنا مع ذلك أطيب حياة وأهنأ عيش على هذه الأرض .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (١) ، ويقول أيضاً : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٢) .

(١) النحل : ١١٢ (٢) الشورى : ٣٠

كما ورد عن رسول الله ﷺ ما يدل على أن العمل الصالح يزيد الله به في العمر ويبارك به في الرزق وأيضاً فقد ثبت أن البلاء لا ينزل إلا بذنب ولا يرفع إلا بالتوبة الصادقة .

ومن هنا فقد أستعنت بالله تعالى ولبيت طلب الأحباب وبتوفيق من الله تعالى تم وضع هذا الكتاب .

والله أسأل أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم

السيد عبد المقصود عسكر

من علماء الوعظ والإرشاد

بالأزهر الشريف

مدير الدعوة والتوجيه بالغربية

أنواع الذنوب

اعلم أخى فى الله أن الذنوب لما كانت متفاوتة في درجاتها ومفاسدها فقد تفاوتت عقوباتها فى الدنيا والآخرة بحسب ذلك .

و يمكن إرجاع الذنوب فى أصلها إلى نوعين

الأول : ترك مأمور به

الثانى : فعل منهى عنه

وهما الذنبان اللذان ابتلى الله بهما آدم وإبليس .

ـ وهذان النوعان ينقسمان باعتبار المحل الذى يقع به الذنب إلى ظاهر على الجوارح وإلى باطن فى القلوب .

ـ وينقسمان باعتبار من تعلق الذنب به إلى حق لله تعالى وإلى حق لخلقه . وكل ما كان من حق الخلق

فهو يتضمن أيضاً حقاً للخالق لأنه الآمر الناهى . ولكنه سمى حق الخلق لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم ولا تكفى فيه التوبة .

ـ ثم إن هذه الذنوب جميعاً تنقسم إلى أربعة أقسام ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية

١ ـ الذنوب الملكية هى أن يرتكب الإنسان أفعالا أو يسلك سلوكاً لا يصلح له ، ولا يليق به لأنه من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر ، والعلو بغير الحق واستعباد الخلق ونحو ذلك .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « الكبرياء ردائى فمن نازعنى فى ردائى قصمته » (١) .

والشرك بالله من هذا النوع . وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ولا ينفع معه عمل لأن من كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه فى ربوبيته وملكه وجعل نفسه ندا لله ، وهذا أعظم الذنب عند الله تعالى .

---

(١) رواه الحاكم وصححه علي شرط مسلم .

٢ ـ وأما الذنوب الشيطانية ففيها التشبه بالشيطان فى الحسد والبغى والغش والغل والخداع والمكر والأمر بمعاصى الله وتحسينها والنهى عن طاعات الله وتقبيحها والابتداع فى دين الله والدعوة إلى البدع والضلال ، وهذا النوع يأتى بعد النوع الأول فى درجة الفساد .

٣ ـ وأما الذنوب السبعية ففيها التشبه بالسباع كالعدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين والجرأة على الظلم والعدوان .

٤ ـ وأما الذنوب البهيمية ففيها التشبة بالبهائم مثل الطمع والشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والهلع والجزع وغير ذلك .

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق ، وذلك لعجزهم ـ فى الغالب ـ عن ارتكاب بقية الأقسام ، والذين يقعون فى هذا النوع يدخلون منه إلى سائر الأقسام فهو يجرهم إليها بزمام فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك فى الوحدانية .

ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته .

ـ والذنوب تنقسم أيضاً إلى كبائر وصغائر .

وقد اختلف العلماء في الكبائر هل يمكن حصرها في عدد أم لا ؟

والذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها .

وقد اختلف العلماء كذلك في تعريفها وبالجملة فإن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة .

ومن أولئك الذين عدوا الكبائر أبو طالب المكي فقال : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب وهي الشرك بالله والإصرار على معصية الله والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله .

وأربعة في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس (١) والسحر .

وثلاثة في البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا ، واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواطة ، واثنتان في اليد وهما القتل والسرقة ، وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف ، وواحدة تتعلق بجميع البدن وهي عقوق الوالدين .

---

(١) اليمين الغموس هي التي يبطل بها الحالف حقاً أو يحق بها باطلاً .

عقوبات الذنوب

اعلم أخى فى الله أن عقوبات الذنوب نوعان شرعية وقدرية .

فالشرعية : هي ما جعله الله في شريعته من عقوبة يجب إنزالها بالعاصى كالحدود والتعازير .

والقدرية : هى ما يصيب الله به الإنسان بسبب ذنوبه كالمصائب التى تنزل به وفقدان الأمن وحلول الجوع وغير ذلك مصداقا لحديث رسول الله ﷺ « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » (١) .

وإذا نفذت العقوبات الشرعية فأقيمت الحدود فى الأرض والتزم الناس فى حياتهم بمنهج الله رفعت العقوبات القدرية أو خففت ، ولا يكاد ربنا سبحانه وتعالى يجمع على عبده بين عقوبتين إلا إذا لم تف

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند .

إحداهما برفع موجب الذنب ولم يكن فيه زوال دائه وإذا عطلت العقوبات الشرعية تحولت إلى عقوبات قدرية ، وربما كانت العقوبات القدرية أشد من العقوبات الشرعية . وقد جاء في الحديث « لحدّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً » (١) .

والعقوبات الشرعية تخص فاعلها ولكن العقوبات القدرية تعم ، لأن المعصية إذا خفيت لا تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت أصاب ضررها العامة والخاصة . وإذا رأى الناس المنكر واشتركوا في عدم إنكاره أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده .

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (٢) والعقوبات القدرية نوعان : نوع يقع على القلوب والنفوس وهو أشدها ، ونوع يقع على الأبدان والأموال .

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير سورة النور .

(٢) الأنفال : ٢٥ .

وقد تكون العقوبة شاملة للنوعين معا لما هو معلوم من الاتصال الوثيق بين القلب والبدن .

ـ والعقوبات التى تنزل بالقلوب نوعان :

الأول : آلام وجودية يضرب بها القلب فيصاب بما يفسده .

والثانى : قطع أسباب الحياة والصلاح عن القلب ، وبقطعها يحصل له الفساد والعطب .

والعقوبات التى تصيب الأبدان نوعان كذلك :

نوع يصيب العاصى فى الدنيا ، ونوع يعاقب به فى الآخرة وذلك يكون فى البرزخ بعد الموت وهو عذاب القبر ويكون فى يوم الحساب حين يقوم الناس لرب العالمين .

فالذنب بناء على ذلك لا يخلو من عقوبة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما فيه من العقوبة لأنه يكون كالسكران أو المخدر أو النائم الذى لا يشعر بالألم فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم .

واعلم أن ترتب العقوبات على الذنوب مثل ترتب الإحراق على النار ، والإغراق على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض على الأسباب الجالبة لها .

والعقوبة الشرعية جعلها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتعاطى الطبع له ، وقد جعلها الله ثلاثة أنواع القتل والقطع والجلد ، وجعل كل نوع من هذه الأنواع عقاباً لما يناسبه من الذنوب التى وقعت ، وأيضاً فقد جعل الله سبحانه الذنوب على ثلاثة أقسام :

قسم شرع له حداً من الحدود ولا كفارة فيه اكتفاء بالحد ، وقسم لم يرتب عليه حداً فشرع فيه الكفارة كالظهار وقتل الخطأ وغيرها ، وقسم أدنى من ذلك وفيه تعزير .

******

أثر الذنوب على القلوب

اعلم أخى فى الله أن ضرر الذنوب على القلوب كضرر السموم على الأبدان ، وكما أن السموم تقتل البدن أو تمرضه فإن الذنوب تقتل القلب أو تمرضه كذلك .

فاحرص على سلامة قلبك بالبعد عن المعاصى . يقول رسول الله ﷺ : « ... ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (١) .

ولا سلامة للإنسان إلا بسلامة قلبه ، وسلامته هى طريق النجاح وسبيل الفلاح فى الدنيا والآخرة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٢) .

---

(١) متفق عليه .

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

وإن أول النصر على الأعداء يبدأ من القلب وأول الهزيمة يأتى من القلب ، وإن الشعور بالعزة والكرامة يودعه الله فى القلب والإحساس بالذلة والمهانة يكون فى القلب يقول الله تعالى : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ (١) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال لا إنكم يومئذ لكثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله المهابة من قلوب عدوكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قالوا وما الوهن يا رسول الله ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت » (٢) . وقد جاء فى دعاء بعض السلف « اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك » .

وجاء فى مراسيل الحسن : إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل ، وتحابوا بالألسن و تباغضوا بالقلوب

---

(١) الأنفال : ١١ .

(٢) رواه الإمام أحمد .

وتقاطعوا بالأرحام لعنهم الله عز وجل عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال : « يأتى زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء . قيل بم ذلك يا رسول الله ؟ قال بما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره » .

وفى حديث ابن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً كمثل القوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق يجىء بالعود والرجل يجىء بالبعرة حتى جمعوا سواداً عظيماً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها » (١) .

يعنى كجماعة كانوا فى صحراء وجاء وقت الطعام فراحوا يجمعون عوداً من هنا وبعرة من هناك حتى صار كثيراً فأشعلوه وكان من ذلك نار عظيمة أنضجت كل ما شاءوا ، ولهذا قال بعض السلف:المعاصى بريد الكفر كما أن

---

(١) رواه الإمام أحمد .

القبلة بريد الجماع والنظر بريد العشق والغناء بريد الزنا والمرض بريد الموت .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك هو الران الذى ذكره الله عز وجل ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

وإذا مرض القلب حرم صاحبه نور العلم ، لأن العلم نور يقذفه الله فى القلب والمعصية تطفىء نور القلب . ولما جلس الإمام الشافعي بين يدى الإمام مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه ، فقال له : إنى أرى الله قد ألقى فى قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقد قال الشافعى فى هذا المعنى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصى

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وقال حديث صحيح .

وقال عبد الله بن عباس : إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق . وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القبر والقلب و وهنا في البدن ونقصاً في الرزق وبغضاً في قلوب الخلق .

وعلى هذا فإن العاصي يعاقب بسبب المعصية بظلمة حقيقية يجدها في قلبه يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة .

وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرة العاصي حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده .

وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً في الوجه يراه كل أحد .

والذنوب تضعف القلب عن إرادته بحيث تقوى في القلب إرادة المعصية وتضعف فيه إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، وهذا من أعظم الأمراض المهلكة التي تصيب القلوب .

ومن أخطر آثار الذنوب على القلب أن يألف المعصية فتصير له عادة ولا يستقبح من نفسه رؤية الناس له على

المعصية أو كلامهم عنه حتى يصل به الحال إلى المفاخرة بالمعصية والتباهى بارتكابها وبهذا يسد طريق التوبة على نفسه ، ويغلق بابها ـ فى الغالب ـ لقوله ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرون ، وإن من الجهار أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول عملت كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه (١) » .

وإذا صار العاصى كذلك طبع على قلبه فكان من الغافلين وأصيب بالعمى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ (٢) .

ومعنى ذلك أن المعاصى والذنوب تعمى بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغى . وتضعف قوته وعزيمته فلا تصبر على الحق . بل إنها قد تتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمنكر معروفا .

وعلى العكس من ذلك فإن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة فى صفائها

---

(١) متفق عليه .　　　(٢) الحج : ٤٦ .

وبهائها فيتلألأ نوراً فإذا دنا منه الشيطان أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب .

وإن خوف الشيطان من هذا القلب أشد من خوف الذئب من الأسد حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ما شأنه ؟ فيقال أصابه إنسي وبه نظرة من الإنس .

والذنوب تؤدى إلى ذهاب الحياء من القلب ، والحياء مادة حياة القلب وبذهاب الحياء يذهب الخير كله .

يقول ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (١) .

ومعنى ذلك أن الذنوب تضعف الحياء من العبد وربما انسلخ منه بالكلية حتى أنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه بل ربما قام هو بإخبار الناس عن سوء حاله وقبح فعاله .

ومن استحيا من الله عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه ومن لم يستح من الله تعالى عند معصيته لم

---

(١) رواه البخارى .

يستحق الله من عقوبته .

ومن أخطر آثار المعاصى ، أنها تضعف فى القلب تعظيم الرب جل جلاله ، وتضعف وقاره في قلب العبد ولابد شاء أم أبى ، وإذا تمكن وقار الله وتعظيمه فى قلب العبد لم يتجرأ على معاصيه .

وربما اغتر المغتر وقال إنما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعى فى عفو الله لا ضعف عظمته فى قلبى .

وهذا من مغالطة النفس فإن قوة عظمة الله تعالى وجلاله فى قلب العبد تقتضى تعظيم حرماته ، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب ، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره .

وعلى قدر تعظيم العبد لله ولحرماته يعظم الناس حرمته وعلى قدر حب العبد لله يحبه الناس . وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعانى فى كثير من آياته فبين الله سبحانه أنه عاقب المذنبين فغطى على قلوبهم وطبع عليها بسبب ذنوبهم . وأنه سبحانه نسيهم كما نسوه ، وأهانهم كما أهانوا دينه ، وضيعهم كم ضيعوا أمره

يقول عزمن قائل ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس . وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ... ﴾ (١) .

ومن آثار الذنوب أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة . والقلب إنما يسير إلى الله بقوته فإذا مرض بسبب الذنوب ضعفت تلك القوة التى تسيره فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يصعب تداركه ، فالذنب إما أن يميت القلب أو يمرضه مرضا مخوفاً أو يضعف قوته حتى ينتهى ضعفه إلى الأشياء الثمانية التى استعاذ منها الرسول ﷺ فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن . وأعوذ بك من العجز والكسل . وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » (٢) .

---

(١) الحج : ١٨ .　　(٢) رواه أبو داود .

فالهم والحزن قرينان لأن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم وإن كان من أمر قد وقع فى الماضى أحدث الحزن .

والعجز والكسل قرينان لأن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل .

والجبن والبخل قرينان لأن عدم النفع من العبد إن كان ببدنه فهو الجبن وإن كان بماله فهو البخل .

وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان ، فإن استيلاء الغير إن كان بحق فهو غلبة الدين ، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال .
والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لأمور أخرى استعاذ منها الرسول ﷺ أيضا وهى جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء .

ومن آثار الذنوب أنه بسببها يلقى الله الرعب والخوف فى قلوب أصحابها ، فلست ترى العاصى إلا خائفاً مرعوباً لأن

الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان آمنا من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج منه أحاطت به المخاوف من كل جانب .

وأيضاً فإن الذنوب تحدث فى القلب وحشة هائلة ، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبينه وبين الخلق ، وبينه وبين نفسه ، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأصبح العيش مراً . وهذه الوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة ، فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها وحشة الكفر والشرك ولا تجد أحداً يقترف شيئاً من ذلك إلا ويصيبه من الوحشة بمقدار ما اقترف والعياذ بالله .

وإن الذنوب إذا تكاثرت طبع الله على قلب صاحبها فكان من الغافلين وكما قال بعض السلف فى قول الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

---

(١) المطففين : ١٤ .

قال هو الذنب بعد الذنب ، وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، وقال غيره لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم .

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد .

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : القلوب أربعة ، فقلب أجرد فيه مثل سراج يزهر فذلك قلب المؤمن . وقلب أغلف فذلك قلب الكافر . وقلب منكوس فذلك قلب المنافق . وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما » .

فاحرص أخى فى الله على سلامة قلبك من كل مرض .

والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد

والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة .

ولا تتم السلامة للقلب مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد . وبدعة تخالف السنة . وشهوة تخالف الأمر . وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض الإخلاص .

وقد أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فوصفه بسلامة القلب . قال تعالى : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ (١) .

فاللهم ارزقنا صحة الأبدان وسلامة القلوب . ورجحان العقول وصفاء النفوس ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا واهدنا صراطك المستقيم .

❀❀❀❀❀❀

---

(١) الصافات : ٨٣ ، ٨٤ .

أثر الذنوب على العقول

اعلم أخى فى الله أن للعقل نوراً يزداد بالطاعة وينطفىء بالمعصية . وإذا طفىء نوره ضعف ونقص .

يقول بعض السلف : ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله .

وهذا ظاهر فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية لأن الذى يفوته من خير الدنيا والآخرة بسبب المعصية أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة الموقوتة بفعل المعصية .

فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟

وهل من العقل أن يتناول الإنسان شيئاً يذهب عقله

ويضعف بدنه ويفقده كرامته ويغضب ربه ؟ وإنك لا تجد أبداً عاقلين أحدهما عاص لله والآخر مطيع لله إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصح ، ورأيه أسد . والصواب قرينه . ولهذا نجد خطاب القرآن موجهاً إلى أولى الألباب والعقول : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾ (١) .

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (٢) .

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٣) .

وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصى من هو فى قبضته وفى داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده وأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضى كأنها حلم ويحرم بسببها من النعيم المقيم والفوز العظيم .

---

(١) البقرة : ١٩٧ . (٢) البقرة : ٢٦٩ . (٣) الروم : ٢٤ .

وقلة عقل الكافرين ظاهرة لكل من تدبر ، فقد أهلكوا أنفسهم بالكفر ولم ينقذوها بالإيمان وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

وهذا مثال واضح يكشف عن هذه الحقيقة .

لما دعا رسول الله ﷺ أهل مكة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد والسير فى طريق الهداية والنور رفضوا دعوته وكذبوه مع علمهم بأنه صادق . واشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة وآثروا الظلام على النور والكفر على الإيمان والشقاوة على السعادة .

بل واستعجلوا عذاب الله كما حكى القرآن عنهم يقول الله تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (١) .

ولو استعملوا عقولهم وانتفعوا بها لقالوا اللهم إن كان

---

(١) الأنفال : ٣٢ .

هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

وهذا هو مسلك الضالين والمكذبين قديماً وحديثاً ، فهل يدل ذلك المسلك إلا على ضعف عقولهم ونقص تفكيرهم .

من أجل ذلك كان حكم القرآن الكريم عليهم صائباً حين قال : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ (١) .

بل إنهم سيحكمون بأنفسهم على أنفسهم حين يرون العذاب بأنهم كانوا فاقدى العقل . يقول الله تعالى حاكياً مقالتهم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ (٢) .

❀❀❀❀❀

---

(١) الرعد : ١٩ .   (٢) الملك : ١٠ ، ١١ .

الذنوب تمحق البركة

وكما أن الذنوب تفسد القلوب والعقول فإنها تمحق البركة من كل شيء . تفسد صحة البدن وتنقص الرزق والعمر . وتفقد الإنسان الأمن والطمأنينة وغير ذلك ، أما إفسادها صحة البدن فلأن المؤمن قوته من قلبه وكلما قوى القلب قوى البدن وأما الفاجر فإن ضعف قلبه يؤثر فى البدن لا محالة وهو أضعف شيء عند الحاجة تخونه قوته وهو أحوج ما يكون إليها .

تأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم عندما كانوا فى حاجة إليها وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم .

يضاف إلى ذلك أن الله تبارك وتعالى ما أمر الإنسان بطاعة إلا وهو يعلم أن فيها صلاح دينه ودنياه وسلامة بدنه وقلبه وعقله وما نهاه عن معصية إلا وهو يعلم ما فيها من ضرر عليه فى دينه ودنياه وبدنه وقلبه

وعقله ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) .

وسوف نكشف عن شيء من ذلك فيما بعد علاوة على ما سبق .

وقد ثبت أن المعاصي تكون سبباً في محق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة . فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق .

قال الله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ (٣) .

وقد بين الله تبارك وتعالى أن من جزاء الطاعة فى الدنيا أن يرزق المؤمن حياة طيبة سعيدة ومن جزاء المعصية فى

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

(٢) الأعراف : ٩٦ .

(٣) الجن : ١٦ .

الدنيا حصول الضنك والشقاء والإصابة بالجوع وحلول الخوف . قال الله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة .... ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ... ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٣) .

وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام وهو يخاطب قومه : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (٤) .

وكما أن البر يزيد فى العمر فإن الفجور ينقصه قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ قال يا قوم إنى لكم

---

(١) النحل : ٩٧ .
(٢) طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٣) النحل : ١١٢ .
(٤) نوح : ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. ﴾ (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره ـ أى يؤخر له فى أجله وعمره ـ فليصل رحمه » (٢) .

وللعلماء فى هذه المسألة أقوال .

قال بعضهم : قصر عمر العاصى معناه ذهاب البركة منه ومحقها عليه فلا ينتفع بعمره وإن طال .

وقال بعضهم : إن المعاصى تنقص العمر على الحقيقة كما تنقص الرزق على الحقيقة فإن الله تبارك وتعالى قد جعل للبركة فى الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده وجعل للبركة فى العمر أسبابا تكثره وتزيده ، ولا مانع من زيادة العمر بأسباب جعلها الله . كما أنه لا مانع من نقصه بأسباب كذلك فالأرزاق والآجال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغنى والفقر وإن كانت بقضاء الله عزوجل فإن الله يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

---

(١) نوح : ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٢) متفق عليه .

وقال آخرون : إن تأثير المعاصى فى محق العمر إنما يكون بأن تفوته حقيقة الحياة وهى حياة القلب .

ولهذا جعل الله ـ سبحانه ـ الكافر ميتاً غير حى . كما قال تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ (١) .

فالحياة فى الحقيقة حياة القلب وعمر الإنسان مدة حياته فإذا أعرض العبد عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية ولا يشعر بذلك إلا عندما يقول كما حكى الله ذلك فى كتابه ﴿ .. يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾ (٢) .

وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والعمر لأن الشيطان موكل بالمعاصى وبأصحابها . وكل شىء يتصل به الشيطان ويقاربه محقت بركته .

ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما فى مقارنة اسم الله من البركة .

---

(١) النحل : ٢٠ ، ٢١ .　　(٢) الفجر : ٢٣ ، ٢٤ .

وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة . وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة . فإن الرب هو الذى يبارك وحده والبركة كلها منه وكل مانسب إليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه ـ وهى الشام ـ أرض البركة ، وصفها الله بذلك فى آيات من كتابه .

فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك إلا ما نسب إليه أعنى إلى محبته وألوهيته ورضاه . وليس إلى ربوبيته وخلقه لأن الكون كله ـ بهذا المعنى ـ منسوب إليه .

فكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه . وكل ما كان منه قريباً ففيه من البركة على قدر قربه منه . وضد البركة اللعنة . فأرض لعنها الله أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله ، أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به ، أو كانت له به صلة فلا بركة فيه أبداً . وقد لعن الله عدوه إبليس ، وجعله أبعد خلقه منه فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به .

فمن هنا كان للمعاصى أعظم الأثر فى محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل . فكل وقت عصى الله فيه أو مال عصى الله به أو بدن أو جاه أو علم أو عمل عصى الله به فهو على صاحبه وليس له .

وليس للإنسان من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به .

ولهذا فمن الناس من يعيش فى هذه الحياة الدنيا مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو دونها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو دونها .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ قال : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه وعالم أو متعلم » (١) .

ومن شأن المعاصى أنها تزيل النعم وتستدعى نزول النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا

---

(١) رواه الترمذى .

بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه « ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة » .

ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يخرج في آخر الزمان قوم يختلون (٣) الدنيا بالدين . ويلبسون للناس مسوك الضأن من اللين (٤) ، ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل أبي تغترون أم علي تجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم حيران » (٥) .

---

(١) الشورى : ٣٠ . (٢) النور : ٦٣ .

(٣) يطلبون الدنيا بعمل الآخرة أي يشترون الدنيا بالدين .

(٤) أي يلبسون جلود الضأن إشارة إلي التظاهر بالزهد خداعاً .

(٥) جامع الترمذي .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا بوجهه فقال : « يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن . ما ظهرت الفاحشة فى قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذ بعض ما فى أيديهم وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله فى كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم »(١) .

من هذا الحديث الشريف يظهر أن عقوبات إلهية قدرية ينزلها الله على العباد بسبب معاصيهم وهى على النحو التالى :

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه .

١ ـ ظهور الفاحشة وإعلانها معصية عقابها أمراض وأوجاع جديدة تنزل بهم لم تكن موجودة من قبل .

٢ ـ السرقة فى المكيال والميزان عقابها المجاعات والغلاء وظلم الحكام للشعب .

٣ ـ منع الزكاة وعدم إخراجها . عقابها منع نزول المطر الذى يترتب عليه نقص الأرزاق والأقوات . وإذا نزل المطر فمن أجل البهائم لا من أجل الناس .

٤ ـ نقض العهود والمواثيق معصية عقابها تسليط الأعداء وأكلهم لحقوقنا وأخذهم بعض ممتلكاتنا وسرقتهم لثرواتنا .

٥ ـ إهمال شرع الله والحكم بغير ما أنزل الله جريمة يرتكبها الحكام يترتب عليها عقاب خطير هو أن يصبح بأسنا بيننا شديداً بدلا من أن يكون على أعدائنا فتقع بيننا الحروب الشرسة والمعارك الضارية .

وما دامت ذنوب الناس تسبب القحط والجدب ومنع نزول المطر كما يتضح مما سبق فإن بقية المخلوقات كالدواب

وغيرها يعود عليها شؤم ذنوب العصاة فيحترقون بشؤم الذنوب والظلم . قال أبو هريرة رضي الله عنه : « إن الحبارى [1] لتموت في وكرها من ظلم الظالم » .

وقال مجاهد : « إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر . وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم » .

وقال عكرمة : « دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم » ، فلا يكفى المذنب عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر يرفعه : « والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوانا خونة وقراء فسقة سيماهم سيما الرهبان وقلوبهم أنتن من الجيف أهواؤهم مختلفة فيتيح الله لهم فتنة

---

(١) طائر أكبر من الدجاج وأطول منه عنقا .

غبراء مظلمة فيتهوكون فيها [1] . والذى نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة حتى لا يقال الله الله ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم . لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم » .

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من صور العقوبات التى يعاقب الله بها العصاة فى الدنيا فى قلوبهم وعقولهم ومحق البركة فى أعمارهم وأرزاقهم وغير ذلك .

فسنذكر أيضاً بعضاً آخر من العقوبات تحذيراً للمسلمين من أخطار المعاصى والذنوب .

*****

---

(١) يتهوكون فيها يعني يتحيرون ولا يعرفون المخرج منها .

الذنوب تهلك الأمم

إن كل من يقرأ التاريخ بتدبر ويعى دروسه سيدرك أن الله تبارك وتعالى لم يهلك أمة من الأمم السابقة إلا بسبب ذنوبها وبعد أن أرسل إليها رسولا ينذرها ويحذرها ويخوفها عاقبة ارتكاب هذه الذنوب ومصير من وقعوا فى المعاصى يقول الله تعالى :

﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (١) .

وقد قامت فى الأرض حضارات وعمرت مدائن وسيطرت ممالك ، لكنها جميعاً ـ وبسبب ذنوبها ـ بادت واندثرت وأصبحت أثراً بعد عين وصارت عبرة لمن يعتبر ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات

---

(١) القصص : ٥٩ .

العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴾ (١) .

ومن أجل العظة والاعتبار ــ وغير ذلك من الأهداف ــ استعرض القرآن الكريم ذلك التاريخ مجملا مرة كما فى هذه الآيات ومفصلا مرات أخرى لعل أهل مكة ومن بعدهم يعتبرون بما جرى للسابقين فيتركوا الكفر والعصيان ، ويلزموا طريق الطاعة والإيمان .يقول الله تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ (٢) .

وحين يستعرض القرآن الكريم تاريخ الأمم السابقة فإنه يركز على مواطن العبرة فى ذلك التاريخ .

فهؤلاء عاد قوم هود عليه السلام كانوا فى قوة ومنعة

---

(١) الفجر : ٦ : ١٤ .

(٢) الأنعام : ٦ .

وكانوا فى بحبوحة من النعيم ، بلغوا فى الحضارة الصناعية مبلغاً عظيماً فكانوا يبنون المبانى الضخمة يتفاخرون بها ، ويعتزون بما وصلوا إليه من قوة حتى قالوا : من أشد منا قوة فلما ولغوا فى الترف وارتكسوا فى المعاصى وانكبوا على الذنوب وأصروا على عبادة الأصنام . وكذبوا رسولهم وسخروا منه قائلين : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين .

أهلكهم الله ﴿ بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ (١) .

وفعلت الريح فعلها فيهم وكانت كما وصف الله ﴿ تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ (٢) .

ـ وهؤلاء ثمود قوم صالح عليه السلام كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين رائعة الصنع والإبداع والأناقة ويعيشون فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم (٣)

---

(١) الحاقة : ٦ : ٨ . (٢) الأحقاف : ٢٥ .

(٣) جيد كأنه لا يحتاج إلي هضم .

لكنهم بدلا من شكر هذه النعم والاعتراف بفضل المنعم سبحانه اتجهوا إلى الفساد والأنحراف فأرسل الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام يأمرهم بتقوى الله وطاعته والبعد عن الفساد والمفسدين قائلاً ما حكاه القرآن الكريم ،

﴿ فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ (١) .فكذبوا رسولهم واتهموه بأنه مسحور . وزعموا أنهم يتشاءمون منه . وتحدوه أن يأتيهم بآية . فقال لهم هذه ناقة جعلها الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . ونبههم إلى أن الماء سيقسم بينهم وبين الناقة بحيث يكون لها شرب ولهم شرب يوم معلوم . وبرغم ذلك لم يتعظوا ولم يعتبروا وانبعث منهم أشقاهم فعقر الناقة . وعند ذلك قال لهم نبيهم تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .

وفى رواية للإمام أبى جعفر بن جرير وغيره أن هذه

---

(١) الشعراء : ١٥٠ ١٥٢ .

الجريمة وما تبعها إنما وقع بتحريض من بعض نساء ثمود الفاجرات اللاتى استملن قلوب بعض الرجال وحرضنهم على ذلك .

وبعد أن عقروا الناقة عزموا على قتل نبى الله صالح عليه السلام . وكان ما ذكره الله فى قوله ﴿وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه (١) وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ (٢) .

لقد أرسل الله على هذا النفر حجارة رضختهم وقتلتهم قبل قومهم . ثم لما انتهت الأيام الثلاثة جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من الأرض ففاضت أرواحهم وزهقت نفوسهم وأصبحوا فى ديارهم جاثمين (٣) ، وأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون .

---

(١) أى لنقتلنه غدراً في الليل .

(٢) النمل : ٤٨ : ٥٢ .

(٣) أى صرعى لا أرواح فيهم .

ـ وهؤلاء أهل سدوم وما حولها من القرى اخترعوا ذنوبا لم يسبقهم إليها أحد ولم تعرف فى بنى آدم قبلهم كانوا يأتون الذكران من العالمين ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم . ويقول بعض المفسرين (إنهم اعتادوا هذا الأمر حتى استغنى الرجال بعضهم ببعض . وكذلك نساؤهم فقد استغنين بعضهن ببعض) (١) .

فأرسل الله إليهم نبيه لوطا عليه السلام يدعوهم إلى طاعة الله ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحذرهم عاقبة ذنوبهم . قال الله تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ (٢) .

---

(١) إن مثل هذا الصنيع يؤدى إلي انقراض الشعوب التي يشيع فيها إذا لم يعاجلهم الله بعقوبة وهذا ما نراه في الأمم التي تنتشر فيها الفوضى الجنسية . إن عدد السكان فيها في تناقص مستمر . والعاقل لا يغتر بما لديهم من ثروة أو قوة .

(٢) العنكبوت : ٢٨ ، ٢٩ .

حينئذ دعا لوط عليه السلام ربه قائلا رب انصرنى على القوم المفسدين . فاستجاب الله دعاءه وأرسل إليه ملائكة نزلوا ضيوفاً عليه وهو لا يعرفهم ظنهم بشراً . فجاء إليه قومه راغبين فى العدوان على ضيوفه فساء هذا الأمر لوطا عليه السلام وقال لأضيافه لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد (١) .

فقالوا له إنا رسل ربك . لن يصلوا إليك . ومن عجيب أمر قومه أنهم لما انتكست فطرتهم على هذا النحو الشائن صاروا يرون النظافة والاستقامة عاراً وشناراً ويرون الانحراف والنجاسة شرفاً وفخاراً . وقد سجل القرآن عليهم ما قالوا فى ذلك فى قول الله تعالى :

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ (٢) .

---

(١) في رواية الحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال ، قال رسول الله ﷺ : « رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلي ركن شديد وما بعث الله من بعده نبياً إلا في ثروة من قومه .

وبهذا استحقوا مقت الله وغضبه فأنزل الله عليهم عقابه ونجى نبيه لوطا عليه السلام والمؤمنين من أهله إلا امرأته يقول الله تعالى : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (١) وهذه عاقبة كل من اجترأ على معاصى الله وكذب برسل الله . ولقد كان عذاب قوم لوط على النحو الذى وصفه الله فى قوله ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ (٢) .

وقد كان الترف وما يزال سبيلا إلى اتباع طريق الفسق والفجور والإعراض عن أمر الله .

ومن سنن الله فى خلقه أنه كلما سلكت أمة هذا المسلك استحقت أن يهلكها الله .

---

(١) الأعراف : ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) هود : ٨٢ ، ٨٣ .

وحجارة من سجيل أي كبيرة من طين شديد قوى ، ومعنى منضود أي معدة لذلك أو يتبع بعضها بعضاً ، ومعنى مسومة أى معلمة عليها أسماء أصحابها .

مصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (١) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ (٢) .

وهكذا كانت الذنوب سببا فى هلاك الأمم السابقة وتلك من أهم عبر التاريخ .

ولقد لفت القرآن الكريم أنظار الناس بقوة إلى هذه العبرة حين قص علينا جانباً من قصص الأولين فى سورة العنكبوت ثم ختم ذلك بقول الله تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٣) .

---

(١) أمرنا مترفيها ففسقوا ...... إما أن يكون المراد جعلناهم أمراء ، ويؤيده قراءة أمّرنا بتشديد الميم . وإما أن يكون المراد أمرناهم بالطاعة والاستقامة فعصوا وفسقوا والله أعلم .

(٢) الإسراء : ١٦ ، ١٧ .

(٣) العنكبوت : ٤٠ .

أعظم الذنوب

اعلم أخى فى الله أن أعظم الذنوب على الإطلاق هو الإشراك بالله تعالى .

يقول الله عز وجل :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (١) .

ويقول الله سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ (٢) .

وحقيقة الشرك هو التشبه بالخالق وتشبيه المخلوق به ، والشرك بالله على درجات . أخطرها أن يجعل الإنسان لله نداً لما ورد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ . قال أن

---

(١) لقمان : ١٣ .   (٢) النساء : ٤٨ .

تجعل لله نداً وهو خلقك . قال قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت ثم أى ؟ . قال أن تزنى بحليلة جارك [1] .

وقد يكون الشرك فى العبادة والعمل . وهذا النوع قد يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله . وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ولكنه لا يخلص له فى عمله وعبوديته بل يعمل لحفظ نفسه تارة ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة . فلله من عمله وسعيه نصيب ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب .

هذا حال أكثر الناس ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ « الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . قيل وكيف ننجوا منه يا رسول الله ؟ قال قل اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم » [2] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن حيان في صحيحه وانظر الجواب الكافى ص ١٣٤ .

وعلى هذا فالعمل الصالح هو المنضبط بالسنة الخالى من الرياء . وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه اللهم اجعل عملى كله صالحا . واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

والشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل ويصير كأن لم يكن ، لقول الله عز وجل فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا أشرك معي فيه غيرى فهو للذى أشرك به وأنا منه برىء » (١) .

والشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر . ومغفور وغير مغفور . وقد يكون الشرك فى الأقوال والأفعال والإرادات والنيات .

والمشركون قلقون دائماً يعيشون فى حيرة لا يذوقون طعم السكينة ، ولا يستقرون على منهج ولا يستقيمون على طريق ، أفكارهم مشتتة وقلوبهم ممزقة .

يقول الله تعالى : ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾ (٢) .

---

(١) رواه ابن ماجة وفي رواية عند مسلم « تركته وشركه » .

(٢) الحج : ٣١ .

وقد ضرب الله مثلا للموحد والمشرك فقال : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١) .

فهذا مثل يصور ما عليه حال الموحد وما عليه حال المشرك ، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد يتجه إلى مصدر واحد للحياة والقوة والرزق ، مصدر واحد للنفع والضر ، مصدر واحد للعطاء والمنع ، فتستقيم خطاه على الطريق ، إنه يخدم سيداً واحداً . يعرف ماذا يرضيه فيفعله ، ويعرف ماذا يغضبه فيحذره . وبذلك تتجمع طاقاته وتتوحد وينتج بكل قوته وجهده على عكس المشرك الحائر المضطرب الموزع الفكر والوجدان .

هذه حاله فى الدنيا ، أما فى الآخرة فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار .

---

(١) الزمر : ٣٩ .

وانظر في ظلال القرآن « للشهيد سيد قطب » في تفسير سورة الزمر .

جرائم الظلم والعدوان

ثم إن الظلم والعدوان ينافيان مقاصد الدين كلها لأنه على العدل قامت السموات والأرض ، وبالعدل ، أرسل الله الرسل وأنزل الكتب . يقول الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ... ﴾ (١) .

والظلم قد يقع من الشخص على نفسه فيوردها موارد الهلاك ، وذلك ينطبق على جميع الذنوب والمعاصى .

وأشد أنواع الظلم التى يظلم بها الإنسان نفسه أن يشرك بالله تعالى .

---

(١) الحديد : ٢٥ .

ومن الظلم أن يضر الإنسان نفسه بإفساد الدين وذلك يكون بترك الطاعات وفعل المنكرات ، أو يضر نفسه بإفساد بدنه فيدمره بالكلية عن طريق الانتحار أو يفسد صحة الجسم والعقل بتناول الخمور وأنواع المسكرات ، ومن الظلم أن يعتدى الإنسان على غيره بإزهاق روحه بالقتل بغير حق ، وأشده أن يقتل ولده مخافة أن يطعم معه كما جاء فى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى رواه ابن مسعود رضى الله عنه وقد ورد ذكره عند الحديث عن جريمة الإشراك بالله .

وقد يكون الظلم بالعدوان على العرض وذلك يكون بالزنا واللواط ، وأشد أنواع الزنا أن يزنى الرجل بحليلة جاره كما جاء فى الحديث المذكور . وقد يكون العدوان على الغير بأكل ماله بغير حق .

ولذلك صور شتى منها الربا ، ومنها الغش ، ومنها الاحتكار ، ومنها السرقة ومنها الغصب .

وقد حرم الإسلام كل ذلك لتعارض كل حالات الظلم والعدوان مع مقاصد الإسلام التى يعمل لها ويسعى لحمايتها وهى حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال . وبحفظها يسعد الإنسان وبضياعها يشقى .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ... ﴾ (١) .

---

(١) طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .

جريمة القتل وخطرها

وجريمة القتل تتفاوت درجاتها في القبح والفظاعة بحسب شخصية المقتول ، وهو محرم بكل صوره ما دام بغير حق .

فإذا كان قصاصا يقوم به من ولاه الله أمر ذلك كان حياة كما قال الله جل شأنه : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ (١) .

وعلى هذا فقد حرم الإسلام الانتحار بأي وسيلة كانت . جاء في هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحسى سما فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار

---

(١) البقرة : ١٧٩ .

جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » (١) .

وقد جاء فى قصة الرجل الذى بذل جهداً فائقاً فى قتال المشركين حتى أعجب به الصحابة رضوان الله عليهم . فقال ﷺ : أما إنه من أهل النار . وعجب الصحابة لذلك فتبعه رجل منهم وإذا به يراه وقد جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذباب سيفه « أى طرفه الأعلى » بين ثدييه ثم تحامل على السيف فقتل نفسه وجاء الصحابى إلى رسول الله ﷺ يحكى ما جرى ويقول أشهد أنك رسول الله . فقال ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » (٢) .

ومن أفظع حالات القتل وأشدها جرما قتل الأنبياء كما فعل اليهود عليهم لعائن الله

وإن أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبى كما ورد ذلك فى حديث عند الإمام أحمد ويأتى بعد ذلك

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه .

قتل الصالحين والعلماء الذين يدعون إلى الله ويأمرون الناس بالقسط وينصحونهم فى الله . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾ (١) .

وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود فى النار وغضب الجبار ولعنته . قال تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما ﴾ (٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما » (٣) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول « ما أطيبك وما أطيب ريحك وما أعظمك وما أعظم حرمتك .

---

(١) آل عمران : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) النساء : ٩٣ .

(٣) البخارى وغيره .

والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك دمه وماله » (١) .

ولما كانت مفسدة القتل عظيمة ، بين الله فظاعتها بقوله : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ (٢) .

ويأتى هنا سؤال ، فى أى شىء يشبه قاتل نفس واحدة قاتل الناس جميعاً ؟ وجواب ذلك أنه يشبهه من عدة وجوه .

منها أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله مخالف لأمره متعرض لعقوبته وقد باء بغضب الله ولعنته .

ومنها أنهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام ، ومن تجرأ على قتل نفس واحدة فإنه يجترىء على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله وقد أصبح بذلك معادياً للنوع الإنسانى .

ومنها أن الله سبحانه جعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد . فإذا أتلف القاتل عضواً من ذلك الجسد فكأنما أتلف الجسد كله .

---

(١) رواه ابن ماجة .
(٢) المائدة : ٣٢ .

وذلك كمن آذى مؤمنا فقد آذى جميع المؤمنين ، وقد قال النبى ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على بن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل [1] » .

ويحرم قتل أهل الذمة من غير المسلمين .

فقد ورد عن رسول الله ﷺ : « من قتل معاهداً لم يرح (أى لم يشم) رائحة الجنة . وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً » [2] .

وإذا تقاتل المسلمون فيما بينهم بسبب عصبية أو طلباً لدنيا أو نزاعا على سلطة فالقاتل والمقتول فى النار لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال كان

---

(١) رواه أحمد وغيره .

(٢) رواه البخارى وأحمد والنسائى وابن ماجة .

حريصاً على قتل صاحبه »(١) .

وهذا الحديث يلزم المسلمين بأن يحلوا مشاكلهم بالوسائل السلمية فى حدود شرع الله ومع التزام العدل والإحسان والرحمة حفاظاً على أخوة الإيمان التى تجمعهم . وذلك كى يستحقوا عون الله وتأييده ونصره . وقد قال ربنا سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (٢) .

وقد جعل الله القصاص جزاء للقتل لما فى ذلك من خير للعباد وتحقيقاً للعدل وحفظا لدماء الخلق من أن تراق بغير حق ، ومع ذلك فقد أباح الإسلام لولى الدم أن يعفو عن أخيه تخفيفاً من الله ورحمة بعباده قال تعالى : ﴿ ... فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ (٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) المائدة : ٥٤ .

(٣) البقرة : ١٧٨ .

جريمة الزنا وخطرها

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد ، ومنافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات ، وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه أو بنته أو أخته أو أمه وفى ذلك خراب العالم .

لذلك كانت هذه المفسدة تالية لمفسدة القتل . ولذا قرنه الله به وبالشرك فى قوله سبحانه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ... ﴾ (١) .

---

(١) الفرقان : ٦٨ .

وقال أيضاً : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ (١) .

وذلك يعنى فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى وصل الغاية فى القبح حتى استقر فحشه فى العقول . وهو موصل إلى الهلاك والبوار والفقر فى الدنيا ، والعذاب والخزى والنكال فى الآخرة .

ومعلوم أن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحرمة . فالزنا بالمرأة التى لها زوج أعظم إثما وعقوبة من الزنا بالتى لا زوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه وتعليق نسب عليه لم يكن منه . وغير ذلك من أنواع أذاه .

وإن كان الجار غائباً فى طاعة كالصلاة وطلب العلم والجهاد فى سبيل الله تضاعف الإثم . حتى إن الزانى بامرأة الغازى فى سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال خذ من

---

(١) الإسراء : ٣٢ .

حسناته ما شئت قال النبي ﷺ : « فما ظنكم » (١) ، أي فما ظنكم أنه يترك له من حسنات .

فإن اتفق أن كانت المرأة رحما منه أضيف إلى ذلك إثم قطيعة رحمها . فإن اتفق أن كان الزاني محصنا كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخاً كان أعظم وأعظم ، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم وأحمد والنسائي (٢) . فإن اقترن بذلك أن وقع الزنا في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله كأوقات الصلاة وأوقات إجابة الدعاء تضاعف الإثم أضعافاً مضاعفة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج » (٣) .

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دم امرىء

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى .

(٢) الحديث « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم ، شيخ زان وملك كذاب ، وعائل - أي فقير - مستكبر

(٣) رواه الترمذي .

مسلم إلا بإحدى ثلاث . الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » [1] بدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعا وشيوعا ثم بالذى يليه ثم بالذى يليه من حيث الوقوع . أو أنه صلى الله عليه وسلم تدرج من الأكبر إلى ما هو أكبر منه مفسدة ، وهكذا .

وإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رءوسهم بين الناس . وإن حملت من الزنا فإن قتلت ولدها جمعت بين جريمتى القتل والزنا . وإن تركته نسبت إلى زوجها غير ولده فورثه وهو أجنبى عنه ويخالط نساءه وهو ليس محرما عليهم .

ومن آثار الزنا أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس .

ومن آثاره كذلك أنه يشتت القلب ويمرضه ، وقد يميته

---

(١) متفق عليه .

ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد فاعله عن الملك ويقربه من الشيطان .

فليس بعد القتل مفسدة أعظم من مفسدته . ولهذا شرع في عقوبته القتل على أشنع الوجوه وأفحشها ولو أن رجلا بلغه أن امرأته أو محرما له ماتت أو قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت ولما كان الوقوع في هذه الأخطار المهلكة يبدأ من النظر . أمر الله عباده المؤمنين وإماءه المؤمنات بغض البصر . وجعل الأمر بذلك سابقاً على الأمر بحفظ الفرج لما بينهما من علاقة كعلاقة المقدمة بالنتيجة قال الله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ... ﴾ (١) .

---

(١) النور : ٣٠ ، ٣١ .

فإن النظر رائد الشهوة ورسولها فمن غض بصره حفظ فرجه ومن أطلق نظره أورد نفسه موارد الهلاك . وقد ورد عن رسول الله ﷺ : « النظرة سهم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه » (٢) .

ويقول الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

ومن آفات النظر أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات ولهذا قيل : إن حبس النظرات أيسر من دوام الحسرات .

---

(٢) رواه الطبراني والحاكم وصححه واعترض بأن فيه واهيا .

جريمة اللواط وخطرها

اللواط جريمة بشعة ، ومفسدة خطيرة ، ولهذا كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات ، ولم يسقط فى هذه الكبيرة قبل قوم لوط عليه السلام أحد من العالمين . ويتضح ذلك من قوله تعالى على لسان نبيهم لوط عليه السلام ﴿ ... أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ (١) .

وقد عاقبهم الله عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم وجمع عليهم أنواعاً من الهلاك . فقد قلب ديارهم عليهم وخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء وطمس أعينهم وجعل عذابهم مستمراً فنكل بهم نكالا لم يفعله بأمة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها . وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم .

---

(١) الأعراف : ٨٠ .

وتصرخ الأرض وتكاد الجبال أن تزول من أماكنها ولهذا فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن مرتكب هذه الجريمة . ومعلوم أن اللعن طرد من رحمة الله قال ﷺ : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط . لعن الله من عمل عمل قوم لوط . لعن الله من عمل عمل قوم لوط » (١) .

ولم يتكرر اللعن ثلاثاً هكذا إلا في حق مرتكب هذه الجريمة فدل ذلك على فظاعتها وبشاعتها لأن اللوطية نكسوا فطرة الله التي فطر الله الرجال عليها وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء . ولهذا قلب الله عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها وقلبهم ونكسوا في العذاب على رءوسهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

---

(١) رواه النسـائي وابن ماجة .

وأما العقوبات الشرعية التى يعاقبون بها فقد اختلف العلماء فى ذلك . فيرى جمهور العلماء مالك والشافعى فى أحد قوليه والإمام أحمد فى أصح الروايتين عنه وإسحاق بن راهويه وغيرهم أن عقوبتهم هى القتل على كل حال محصنين أو غير محصنين ، وهو رأى أبى بكر ، وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ، وذهب عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى وغيرهما إلى أن عقوبة اللواط كعقوبة الزنا وذهب الحاكم وأبو حنيفة إلى أن العقوبة دون ذلك وهى التعزير حسبما يراه القاضى مناسباً للقضاء على هذه الآفة .

ويرى ابن عباس رضى الله عنهما أن عقوبة اللوطية تكون بإلقاء الفاعل والمفعول به من أعلى مكان فى القرية منكسين على رءوسهم ثم تلقى عليهم الحجارة . أى على الهيئة التى انتقم الله بها من سلفهم .

وقد أخذ ذلك من حديث رسول الله ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » (١) .

ولبيان شدة غضب الله عزوجل على مرتكبى هذه الجريمة جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « .. وإذا كثر اللوطية رفع الله عزوجل يده عن الخلق فلا يبالى فى أى واد هلكوا » (٢) .

---

(١) رواه أصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره ، واحتج به الإمام أحمد واسناده على شرط البخارى .

(٢) رواه الطبرانى .

جريمة شرب الخمر وخطرها

إن العقل من أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان وهو مناط التكليف ، وهو أشرف صفات الإنسان

ومن هنا وجب الحفاظ على هذه النعمة وعدم تناول شيء يفسدها .

وقد سمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه أى يمنعه من ارتكاب القبائح التى يميل إليها الإنسان بطبعه .

فإذا شرب الإنسان الخمر زال ذلك العقل المانع من فعل القبائح وفقد الإنسان أشرف صفاته فأصبح كالحيوان لا يدرى ماذا يفعل وهل يضره أم ينفعه ذكر ابن أبى الدنيا أنه مر بسكران وهو يبول فى يده ويغسل يديه كهيئة المتوضيء ويقول الحمد الله الذى جعل الإسلام نوراً والماء طهوراً ، وقد سميت الخمر خمراً لأنها تخمر العقل أى تستره وقيل لأنها تخالط

العقل أى تفسده كما يقال خامره داء أى خالط بدنه وأفسده
والخمر هى كل ما خامر العقل سواء كانت من العنب أو غيره . كما جاء فى الأحاديث عن رسول الله ﷺ وهى كثيرة منها حديث أبى داود : « نزل تحريم الخمر يوم نزل وهى من خمسة من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة . والخمر ما خامر العقل » .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن الخمر قد حرمت وهى من خمسة من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ما خامر العقل » (١) .

وقد جاء تحريم الخمر فى قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ (٢) .

******

(١) متفق عليه .
(٢) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

ويفهم مما سبق أن الخمر ليست محصورة فى هذه الأصناف ما دام أنها كل ما خامر العقل . ومن الأدلة على ذلك قول رسول الله ﷺ : « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » [1] .

وقوله ﷺ : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » [2] .

وقد ورد في حديث آخر رواه أبو داود « نهى رسول الله ﷺ عن كل مخدر ومفتر » .

ومعناه حرمة كل ما يسبب الفتور والخدر فى الأعضاء ومن ذلك يفهم أن الحشيش وغيره مما يسبب الخدر أو الفتور حرام كحرمة الخمر يحد متعاطيه بل إن الحشيش أخبث من الخمر لأنه يفسد العقل والمزاج فساداً عجيباً فيؤدى إلى التخنث وفقدان المروءة والغيرة بحيث إن من يتعاطاه يقبل أن يكون ديوثاً لا يغار على زوجه وأهله .

وقد شدد الإسلام فى تحريم الخمر لأنها مدعاة إلى كل الشرور والمعاصى لأنه بزوال العقل يرتكب الإنسان كل الخبائث .

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .

(٢) رواه أبو داود .

ولذلك قال ﷺ : « اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر » (١) .

وروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن أبا بكر وعمر ومعهما ناس آخرون جلسوا بعد وفاة النبى ﷺ فذكروا أعظم الكبائر فلم يكن عندهم فيها علم فأرسلونى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أسأله فأخبرنى أن أعظم الكبائر شرب الخمر ، فأتيتهم فأخبرتهم . فأنكروا ذلك ووثبوا إليه جميعاً حتى أتوه فى داره فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قال : « إن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل أخذ رجلا فخيره بين أن يشرب الخمر أو يقتل نفساً أو يزنى أو يأكل لحم خنزير أو يقتلوه فاختار الخمر . وأنه لما شرب الخمر لم يمتنع من شىء أرادوه » (٢) .

وقد روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث . إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس . فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية

---

(١) رواه الحاكم وصححه .

(٢) رواه الطبرانى بسند صحيح . والحاكم وقال صحيح علي شرط مسلم .

خمر . فقالت إني والله ما دعوتك لشهادة ولكنى دعوتك لتقع علىّ أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر . فسقته كأساً فقال زيدونى فلم يرم حتى وقع عليها « أى زنا بها » وقتل النفس فاجتنبوا الخمر . فإنها لا تجتمع هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » (١) .

وعلى هذا فإن أضرار الخمر أكثر من أن تحصى . ويكفى أنها مصيدة من مصائد الشيطان يصطاد بها فريسته وأنها تكون سبباً فى انتشار العداوة والبغضاء بين الناس . وأنها تصد الإنسان عن ذكر الله وعن الصلاة وتلك هى مصادر قوة الإنسان فى مواجهة عدوه فإذا انصرف عنها وأهملها كان ضعيفاً . وإنها كما قال عمر بن الخطاب مذهبة للعقل مسلبة للمال . وأنها ليس من السهل التخلص منها لأن متعاطيها إذا ألفها اشتد ميله إليها وكاد من المستحيل أن يتخلص منها ومن أجل هذا فقد لعن الله فى الخمر عشرة . قال ﷺ : « أتانى جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله

---

(١) رواه الإما أحمد بسند صحيح وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقاها »(١) .

وقال ﷺ : « مدمن الخمر إن مات « أى من غير توبة » لقى الله كعابد وثن »(٢) .

وقد ورد أن العباس بن مرداس قيل له فى الجاهلية لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد فى حرارتك ؟ فقال : ما أنا بآخذ جهلى بيدى فأدخله فى جوفى . ولا أرضى أن أصبح سيد قومى وأمسى سفيههم .

******

---

(١) رواه البيهقى بإسناد صحيح .

(٢) رواه الإمام أحمد بسند رجاله رجال الصحيح .

جريمة الربا وخطرها

إن نظرة الإسلام إلى المال تختلف كلية عن نظرة المذاهب الوضعية إليه .

فالإسلام يعتبر أن المال مال الله وضعه فى يد العباد . ومهما ملك الإنســان من مال فهو من الله وعائد إليه

﴿ وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ... ﴾ (١) .

والإنسان بناء على هذا مستخلف فى المال ينبغى أن يتصرف فيه بالطريقة التى حددها صاحبه سبحانه وتعالى . يقول الله عز وجل :﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ (٢) .

---

(١) الحديد : ١٠ .　　(٢) الحديد : ٧ .

وللمال وظيفة اجتماعية ينبغى أن يقوم بها ليسعد به الناس . أما إذا جعل وسيلة للتحكم والتسلط والسيطرة فإنه يكون من أخطر الوسائل فى جلب الشقاء للإنسانية جمعاء .

ومن هنا حرم الإسلام الربا وحث على الصدقة . وذلك يعنى أن الإسلام يحث على التراحم بين الناس ويحض على التعاون بين الخلق وأن يتعاملوا كإخوة .

والربا يناقض ذلك كله فهو قائم على الطمع والجشع والأنانية .

يقول الله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (١) .

إن الأساس الذى يقبله الإسلام للتنظيم الاقتصادى والتعامل المالى هو التعاون . فعلى المسلم أن يستثمر ماله فى حدود ما شرع الله كأن ينشىء مع غيره شركة أو جمعية تعاونية أو هيئة تقوم بتثمير المال فى وجوه مشروعة على أساس الاشتراك فى الربح والخسارة .

---

(١) الروم : ٣٩ .

ومعلوم أن النظام الربوى يقوم على أساس أنه من الضرورى تحقيق الربح بأى شكل كان دون نظر إلى أى خلق كريم فلا إنسانية ولا رحمة ولا ضمير وفى النظام الربوى لا مكان لفقير وكم خرب الربا بيوتا ودمر دولا . وهو على وشك أن يخرب العالم كله .

والمتعاملون بالربا يعرضون أنفسهم لذم الخلائق وبغضهم لهم و«» تسقط عدالتهم وتزول أمانتهم ويستحقون اسم الفسقة ويصابون بقسوة القلوب والغلظة ، ودعاء المظلومين عليهم يستوجب زوال الخير والبركة عنهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

ومعلوم أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الله لا يقبل من المرابين صدقة ولا جهاداً ولا حجا ولا صلة » وفضلاً عن ذلك فإن المرابى عندما يموت ويترك المال لورثته تبقى عليه عقوبته ولهذا قيل : مصيبتان لن يصاب أحد بمثلهما أن يترك ماله كله ويعاقب عليه كله .

ومن أجل هذا كله كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يخافون من الربا خوفا شديداً حتى قال الحسن

البصرى رضى الله عنه « إذا كان لك دين على رجل وأكلت من بيته فهو سحت » .

ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ (١) . قال المرابون بل نتوب إلى الله فإنه لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله . والعاقل يعلم ـ بداهة ـ أن من حارب الله فلابد وأن يشقى فى الدنيا والآخرة . وأن يختم له بسوء .

وذلك يعنى أن اعتياد الربا والتورط فيه علامة على سوء الخاتمة . ومن حارب الله ورسوله أبعده الله عن مواطن رحمته وكرامته وأنزله دركات الشقاء والمهانة .

ولم يتوعد الله أحداً من العصاة بمثل ما توعد المتعاملين بالربا . وذلك واضح من إعلان الحرب عليهم ومن كونهم سيبعثون يوم القيامة مجانين كما ورد عن سيدنا قتادة « إن آكل الربا يأتى يوم القيامة مجنوناً ، وذلك علم لأكلة الربا يعرفهم به أهل الموقف » . وقد فهم هذا من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ... ﴾ (٢)

---

(١) البقرة : ٢٧٩ .   (٢) البقرة : ٢٧٥ .

وسر ذلك أنهم لما أكلوا هذا المال الحرام بأساليب المكر والخداع ومحاربة الله ورسوله ربا فى بطونهم وزاد حتى أثقلها . فلذلك عجزوا عن النهوض مع الناس يوم الحشر وكلما حاولوا النهوض ليسيروا مسرعين مع الناس سقطوا والنار تتبعهم وتحشرهم إلى الموقف العظيم .

وأيضاً فقد توعد الله المرابين بمحق ثرواتهم فلا ينتفعون بها وتكون وبالا عليهم وزاداً لهم إلى النار يقول عز من قائل : ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ (١) .

وفى ذكر الصدقات وبيان أن الله يربيها وينميها لصاحبها حتى يكافئه بها فى مقابلة محق الله للربا وإعلان الحرب على المرابين ما يكشف عن طبيعة المنهج الإسلامى الذى يقوم على أساس ضرورة وجود البر والتراحم بين الناس كطريق مضمون لتحقيق السلام والاستقرار . ويكشف فى الوقت ذاته عن بشاعة النظام الربوى الذى يؤدى لا محالة إلى انقطاع المعروف والإحسان وسيطرة الجشع والطمع .

ومعلوم أنه لا سلام ولا استقرار إذا ما سادت بين الناس هذه الرذائل .

---

(١) البقرة : ٢٧٦ .

وقد روى أبو يعلى بإسناد جيد أن النبى ﷺ قال : « ما ظهر الزنا والربا فى قوم إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله » .

والربا من أكبر الكبائر التى حرمها الإسلام تحريماً قاطعاً سواء كان الربا قليلاً أو كثيراً وسواء كان للاستهلاك أم للإنتاج أو غير ذلك . كما دلت عليه النصوص الكثيرة . وهو ما عليه إجماع الأمة قاطبة ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ لعن كل من اتصل بالربا من قريب أو بعيد . فقد روى عنه لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه . وقال هم سواء (١) . وقد عده رسول الله ﷺ من السبع الموبقات أى المهلكات فقال : « اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم والربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٢) . وعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ثلاثة وثلاثين زنية يزنيها فى الإسلام » (٣)

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .

(٣) رواه الطبرانى .

جريمة السرقة وخطرها

السرقة هى أخذ مال الغير الموضوع فى حرز يناسبه خفية .

وهى من الكبائر التى حرمها الإسلام صيانة لحقوق الملكية وتحقيقاً للأمن .

يقول ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »(١) .

وقد شرع الإسلام فى السرقة ـ متى استوفت الشروط ـ عقوبة تناسبها وهى حد القطع .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وفى رواية عند مسلم وأبى داود زيادة « والتوبة معروضة بعد » .

لقوله تعالى : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله . والله عزيز حكيم ﴾ (١) .

وهذه العقوبة هي أنسب العقوبات لهذه الجريمة . لأن السارق ما دام يأخذ المال خفية ولا يمكن الاحتراز منه فهو ينقب الدور ويتسور البيوت ولا يندفع هذا الفساد بالجلد وإنما تندفع هذه المفسدة بإزالة العضو الذى تسلط به السارق وارتكب الجريمة .

يقول الشهيد سيد قطب « إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد فى المجتمع المسلم فى الحياة وحقه فى كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة من مأكل ومشرب وملبس ومنزل يكنه ويؤويه ويجد فيه الراحة والسكن .

من حق كل فرد على الجماعة ـ والدولة نائبة عن الجماعة ـ أن يحصل على هذه الضرورات عن طريق العمل ما دام قادراً على العمل وعلى الجماعة أن تعلمه كيف يعمل وأن تيسرله العمل وأدوات العمل .

*****

---

(١) المائدة : ٣٨ .

فإذا تعطل لعدم وجود عمل أو أدواته أو لعدم قدرته على العمل جزئياً أو كلياً وقتياً أو دائماً أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفى لضرورياته فله الحق فى استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه .

أولاً : من النفقة التى تفرض له شرعاً على القادرين فى أسرته .

ثانياً : على القادرين من أهل محلته .

ثالثاً : من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له فى الزكاة فإذا لم تكف الزكاة فرضت الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الله ما يحقق الكفاية للمحرومين فى مال الواجدين ، والإسلام يتشدد فى تحديد وسائل جمع المال فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال . ومن ثم لا تثير الملكية الفردية فى المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون . ولا تثير أطماعهم فى سلب ما فى أيدى الآخرين . وبخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية ولا يتركهم محرومين .

والإسلام يربى ضمائر الناس وأخلاقهم فيجعل تفكيرهم متجهاً إلى العمل والكسب عن طريقه لا إلى السرقة والكسب عن طريقها وإذن فلماذا يسرق السارق فى ظل هذا النظام ؟

إنه لا يسرق لسد حاجة من حاجاته فقد كفى . إنما يسرق للطمع فى الثراء من غير طريق العمل .

والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الجماعة المسلمة ويحرمها الطمأنينة التى من حقها أن تستمتع بها . ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال .

وإنه لمن حق كل فرد فى هذا المجتمع ـ كسب رزقه من حلال لا من ربا ولا من غش ولا من احتكار ولا من أكل أجور العمال ثم أخرج زكاته وقدم ما قد تحتاج إليه الجماعة من بعد الزكاة ـ من حق كل فرد فى ظل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاص وأن لا يباح هذا المال للسرقات أو لغير السرقات .

فإذا سرق السارق فى مثل هذه الأحوال فلا عذر له .

ولا ينبغى لأحد أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة (١) .

وقد أوجب الإسلام ـ متى وصل الأمر إلى الحاكم وثبتت التهمة ـ قطع يد السارق اليمنى فإذا عاد إلى السرقة قطعت

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ١٤٧ وما بعدها ط دار إحياء التراث العربى بتصرف يسير .

رجله اليسرى . واختلف الفقهاء فى حكم من عاد بعد ذلك .

وليس من حق الحاكم أن يعفو عن الحد أو يسقطه أو يستبدله بعقوبة أخرى لما ورد فى قصة المرأة المخزومية التى سرقت وجاء أسامة بن زيد يشفع لها عند رسول الله ﷺ فقال له :

« يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله . إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » (١) ولبيان ملاءمة هذه العقوبة لمنع هذه الجريمة وقطع مفسدتها يقول الشهيد عبد القادر عودة « وعلة فرض عقوبة القطع فى السرقة أن السارق حينما يفكر فى السرقة إنما يفكر فى أن يزيد كسبه بكسب غيره فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ويريد أن ينميه عن طريق الحرام وهو لا يكتفى بثمرة عمله فيطمع فى ثمرة عمل غيره . وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور أو ليرتاح من عناء الكد والعمل أو ليأمن على مستقبله ، فالدافع الذى يدفع إلى السرقة ـ

---

(١) متفق عليه .

ويرجع إلى هذه الاعتبارات ـ هو زيادة الكسب أو زيادة الثروة بطريق غير مشروع .

وقد حاربت الشريعة الإسلامية هذا الدافع فى نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع لأن قطع اليد أو الرجل يؤدى إلى نقص الكسب . إذ اليد والرجل كلاهما أداة الكسب . ونقص الكسب يؤدى إلى نقص الثراء وهذا يؤدى إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل والتخوف الشديد على المستقبل . فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التى تدعو لارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة ، وذلك هو الأساس الذى قامت عليه عقوبة السرقة فى الشريعة الإسلامية .

وإنه لعمرى خير أساس قامت عليه عقوبة السرقة من يوم نشأة عالمنا إلى الآن .

وعقوبة الحبس التى قررتها القوانين الوضعية قد أخفقت فى محاربة الجريمة على وجه العموم . وجريمة السرقة على وجه الخصوص .

فعقوبة القطع إذن هى العقوبة الملائمة للأفراد ، وهى فى الوقت نفسه فى صالح الجماعة لأنها تؤدى إلى تقليل الجرائم وتأمين المجتمع .

وما دامت العقوبة ملائمة للفرد وصالحة للجماعة فهى أفضل العقوبات وأعدلها »(١) .

وقد ورد أن أحد الشعراء اعترض على حد السرقة واعتبره زائداً وقارن ـ بجهله ـ بينه وبين دية قطع اليد فقال يد بخمسمئين عسجد وديت ما بالها قطعت فى ربع دينار يعنى كيف تكون دية اليد خمسمائة دينار ذهب وتقطع اليد فى الحد إذا سرقت ربع دينار فقط فرد عليه أحد العلماء بقوله :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها   ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

*****

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارناً بالقانون الوضعى جـ ١ ص ٦٥٢ بتصريف يسير .

فهرس

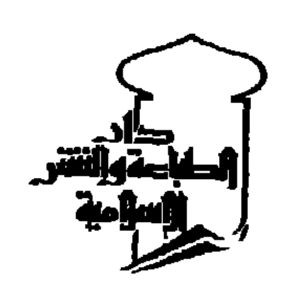

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت : ٦١٨١٣٧